باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعروف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن انهدة نها يدرج فيه على اصحابه نحسن براءته كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف وبرامي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فتناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستطار على المطولة

خطأ في اصلاح خطأ

حول نشأة فن المقامات

كتب الاستاذ زكي مبارك في مقتطف شهر مارس فصلاً سماهُ « اصلاح خطأ مرت عليه قرون !!! » واستهلّه بقوله « المعروف في جميع الدوائر الادبية أن بديع الزمان الهمذاني هو اول من انشأ (كذا وهو يريد أبدع) فنّ المقامات ثم قال : « وفي رأيي ان الحريري هو الذي أذاع هذا الغلط ثم آمن الناس بقوله » ثم قال: « وقد وصلت اخيراً !! الى ان بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات وانما ابتكره ابن دريد المتوفي سنة ٣٢١ » ثم ساق النص من قول صاحب كتاب زهر الآداب وهو [illegible] ابا بكر محمد ابن الحسن بن دريد الازدي أغرب باربعين حديثاً وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستخبها (كذا والصواب انتخبها) من معادن فكره ، وابداها للابصار والبصائر ، وأهداها للافكار والضمائر ، في معارض عجمية [1] (كذا والصواب عجيبة) ، والفاظ حوشية عارضها باربعمائة مقامة الخ

قال الكاتب : وقد دهش المسيو مارسيه حين عرضت عليه هذا النص في باريس وعجب كيف اتفق مع هذا على ان بديع الزمان هو منشئ فن المقامات . الى ان قال : وأذكر أن استاذنا الدكتور طه حسين دهش حين اطلعته على ما وصلت اليه الخ

(١) لا يقال معارض عجمية في كلام مثل ابن دريد الذي كان امام اللغة في وقته وكانت تقرأ عليه دواوين العرب فيسابق الى اتمامها من حفظه . ولي طبعة زهر الآداب التي يباهي الاستاذ المبارك بتصحيحها غلطات فظيعة لا تبدو في أول (باكتشافه) . . [المقتطف] لعل الخطأ مطبعي

فالكاتب كما ترى ملك من هذا النص عنصر الدهشة او ميكروب الدهشة وكذلك دهشت انا ولكن لا من النص بل من ان قوماً يدرّسون للناس تاريخ الادب وهم الى اليوم يجهلون عبارة منشورة في كتاب طبع مراراً مع العقد الفريد وطبع نصفه وفيه هذا النص على حدة

ان هذا النص اورده العلامة النحرير الشيخ حمزه فتح الله في محاضراته التي القاها في مدرسة دار العلوم منذ اربعين سنين وكل تلاميذه يعرفونه وقد ذكرته أنا في مقالة لشرتها من نحو عشرين سنة . وقد نقله الشريشي في شرحه على مقامات الحريري وطبع هذه الشرح من نحو خمسين سنة واشيد طبعه . فما ادري بعد كل هذا ما هي « جميع النوادر الادبية » التي اشار الكاتب اليها اذا كان كل قراء تلك الكتب قد اطلعوا فيها على ذلك النص وعرفوه ؟ ما اشبه الامر بمن يصل اخيراً ! ! الى (اكتشاف) قارة امريكا في كتاب من كتب الجغرافيا..

ان البحث يجب أن يكون في الاصل الذي نقل عنهُ صاحب زهر الآداب اذ لم يذكر هذا الخبر احد غيره وقد كان في آخر عهد بديع الزمان وكان ينقل في كتابه من الكتب وهو من القيروان وليست له رواية ولم يرحل الى العراق . فمن أين وقع له ذلك الخبر وهو لو كان صحيحاً لذكره الثعالبي في اليتيمة أو في غيره من كتبه والاستفاض في كل كتب التراجم

ولم يذكر احد في اخبار ابن دريد ان له مقامات او احاديث وكتبه محصورة معروفة وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول والاحاديث الموضوعة على الاعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد وأشهر وضّاعها ابن الكلبي ، وابن دريد ينتهي اليه في [illegible]

والذي يظهر لنا أن صاحب زهر الآداب سمع الخبر من بعض من رحلوا الى العراق ونقلوا عن علمائه دسّه هذا كأنه مما انفرد بعلمه فرواه ذلك بلا تحقيق . وهذا كان شائعاً في الاندلس والمغرب فكل من رحل الى العراق طلبوا عنده ما ليس عند غيره فان كان في عقدته وهن أنفق من كيس لا ينتهي ما فيه . . . وقد اشرنا الى ذلك في باب الرواية من تاريخ آداب العرب

وكيف يعارض البديع اربعين حديثاً باربعمائة مقامة شرّقت وغرّبت ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة في كتب المشرق ولا تراه منقولاً الا عن رجل من اهل القيروان لا رحلة لهُ ولا سند ولا رواية وانما يستطرف من كل كتاب ومن كل حجر ؟

ولقد نقل الشريشي ان البديع كان يقول لاصحابه في آخر مجلسه اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة فيقترحون ما شاؤا فيملي عليهم المقامة ارتجالاً في الغرض الذي اقترحوه . قال وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار . قلنا وهذا هو السبب في انه لم يتهيأ الينا من المقامات الا ثمانيها فيكون الباقي مما أملوه اذ كان اشبه بالبحث من القول ولا يجري الا مجرى النادرة والحديث دون الصنعة والكتابة

ثم يقول الاستاذ مبارك ان الدكتور طه حسين قال له ارجع الى كتاب الامالي وانظر الاحاديث التي نقلها عن الاعراب فان رأيته يروي عن ابن دريد فاعلم اذن ! ! ! ان الاربعين حديثاً التي ذكر صاحب زهر الآداب انه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التي حلى ! ! ! بها القالي كتابه . قال فلما رجعت الى كتاب القالي وجدت حقاً ! ! ! ان القصص التي احتواها مروية عن ابن دريد الخ

اذا كان ابن دريد شيخ القالي وكانت رواية القالي عنه فهل يكون كل ما يرويه عنه الا مسنداً اليه . وهل نسيت أن الرواية علم دقيق له آداب وشروط . وان صاحب زهر الآداب يقول في احاديث ابن دريد أنه استنبطها من ينابيع صدره يعني ألفها فهي من وضعه وليست من روايته وأنه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالي في كتابه ويلبّس بها على الناس ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الاصمعي أو ابن الكلبي . ولو فعل لكان كذاباً وبطلت الثقة به وبكتابه

هذا مضحك واذا جاز ان يقوله من لا يعرف شروط الرواية فلا يجوز ان يقع فيه من يروي بشروطها وآدابها كالقالي . وانت ترى القالي في أماليه يروي من شعر ابن دريد وينسبه اليه فما الذي يمنعه أن يفعل مثل ذلك في احاديثه التي ألفها « من ينابيع صدره ومعادن فكره » ؟

لا شك عندي ان البديع قد غيره في صنعة المقامات وهذه كانت طريقته فان اصاب جملة جعلها جملاً وان رأى خبراً بنى عليه اخباراً وكانت صنعته الكتابة ويريد ان يملي منها كما يملي الرواة وقد وقفت على خبر مصنوع كتب قبل البديع بنحو مائة سنة ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك احد انه من كتابة البديع في مقاماته اذ النسق هو هو والطريقة واحدة ولا يمكن ان يُبنى على هذا الفصل مقال في تحقيق هذا التقليد الآ بحث يأتي سهب في الموازنة بين كلام وكلام وطريقة وطريقة ولا أملك الآن وقتاً لهذا البحث

مصطفى صادق الرافعي